النحو من القرآن الكريم

1 ـ تقويم جديد لكاد واخواتها

الدكتور محمود عبد السلام شرف الدين

تمهيد

يقسم فقهاء اللغات مفردات اللغات الى قسمين كبيرين احدهما يطلق عليه الكلمات المعجمية اي تلك المفردات ذات المعنى والآخر يطلق عليه الكلمات التركيبية اي تلك المفردات الخالية من المعنى فى حد ذاتها والتى يتضح معناها وهى فى التركيب ، والاسم والفعل من النوع الاول والاداة من النوع الثانى .

والاداة تتسم بسمات كثيرة منها خلوها من المعنى المعجمى ، ومنها الجمود فى الشكل اي عدم التصرف ، ومنها قلة العدد ، فادوات اية لغة محدودة العدد ، ولكن هذا التحديد الكمى لا يقابله تحديد كيفى ، اذ ان نسبة تردد الادوات فى التراكيب تفوق كثيرا نسبة تردد الاسم والفعل .

فالاداة تتسم بثبات الجانب المادي ، كما ان جانبها الدلالى ذو صفة تركيبية فلا يتضح الا فى تركيب ، وهو ما قاله النحاة من ان الحرف ما يدل على معنى فى غيره .

لننظر الآن فى « كاد واخواتها » كما جاءت فى القرآن الكريم على ضوء من التمهيد السابق السريع .

اطلق القدماء على « كاد واخواتها » افعال المقاربة ، واشهر هذه الافعال اربعة عشر فعلا ، وزاد النحويون افعالا اخرى حتى بلغت اربعين (1) .

ويقسم النحويون هذه الافعال قسمين : قسم مجمع عليه انه فعل وهو ما عدا عسى ، وقسم مختلف فيه وهو عسى ، فمذهب الجمهور انها فعل ، وذهب بعض النحويين الى انها حرف (2) .

يقول « ابو حيان » الاصل فى افعال المقاربة التصرف الا عسى خاصة لكن العرب حين استعملت هذه الافعال هنا التزمت فيها لفظ الماضي الا ما كان من اوشك وكاد ، حيث ان الاكثر فى لسان العرب استعمال مضارع الاولى ، واستعمال مضارع الثانية كثير فصيح » (3) .

والنص السابق يشير الى ما يلى :

اولا : الاصل ـ اي القاعدة ـ فى الافعال ومنها افعال المقاربة ان تكون متصرفة .

ثانيا : ما حدث فى افعال المقاربة جاء على خلاف الاصل ، اي ان هذه الكلمات كانت من هذه الناحية لا تنتسب الى الافعال المتصرفة .

ثالثا : قوله : « لكن المعرب .... التزمت فيها لفظ الماضى » يدل على ان افعال هذا الباب كانت تسير نحو حالة « الاداة » .

رابعا : « عسى » اكملت طريق التطور ، اذهى لا ترى حتى امكانية التصرف النظرية .

خامسا : بعض الافعال جاءت على صورة غير الماضى ، فهى بهذا اقرب الى حالة « الفعلية » من سواها .

ولم يرد فى القرآن الكريم الا كلمات قليلة من الافعال السابقة وهى : شرع ، انشا ، خلق ، اقبل ، كاد ، طفق ، عسى .

والكلمات الثلاث الاولى استعملت افعالا تامة

---

1) السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر ؛ همع الهوامع ـ ط 129 ، القاهرة ، مطبعة السعادة ؛ 1909 ، يوسف السودا الاحرفية ـ 62 ، 63 بيروت ؛ دار ريحان .

2) ابو حيان ، محمد بن يوسف بن على ، منهج السالك ـ 67 ، نيويورك 1947 .

3) منهج السالك ـ 70 ، انظر ايضا همع الهوامع ط ـ 129 .

متصرفة محافظة على معناها الفعلي اي الدلالة على الزمن والحدث ·

اما « اقبل » فلم ترد الا ماضية ، وقد استعملت تامة وناقصة من امثلتها تامة قوله تعالى : « فاقبلت امراته فى صرة » (1) « قالوا واقبلوا عليهم ماذا تفقدون» (2) ومن امثلتها ناقصة : « واقبل بعضهم على بعض يتساءلون » (3) ، « فاقبل بعضهم على بعض يتلاومون » (4) ·

اما « كاد » فوردت متصرفة ناقصة فقط ، قال تعالى : « قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » (5) ، « يكاد زيتها يضيء » (6) « ام انا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين » (7) ·

و « طفق » وردت غير متصرفة ناقصة ، لكن علامة المثنى قد لحقت بها ، قال تعالى : « وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » (8) كما وردت مع الخبر المنصوب مرة فى قوله تعالى : « فطفق مسحا بالسوق والاعناب » (9) ·

وقد اول النحاة الآية الاخيرة على ان الخبر محذوف للعلم به اي « يمسح » لدلالة المصدر وبعض النحاة وهو مصعب الخشني ذهب الى ان الخبر ورد اسما مفردا تنبيها على الاصل المتروك (10)

اي ان الاصل ان يكون خبر هذه الافعال مفردا منصوبا ، ولكن الاستعمال ورد بخلاف ذلك ·

وكان ان + الفعل المضارع هى الصورة الكلامية الوحيدة المستعملة رغم انها تعد من الناحية النظرية معادلة لصورة اخرى قياسية غير مستعملة ·

وهذا الرجوع الى « الاصل المتروك (كيفه)) ابن جنى « بانه » مما يقوي فى القياس ويضعف فى الاستعمال او يخطر فى السماع » (10))

والقياس الذى يعنيه ((ابن جني))هو مسلمة مجردة توصل اليها النحاة من دراستهم لكثير من الجمل، ولكن هذه المسلمة مرفوضة ·

اولا : لا يسلم ان الاصل فى الاخبار ان تكون مفردة منصوبة ، فتراكيب اللغة مليئة بالاخبار غير المفردة ·

ثانيا : على فرض التسليم بهذه المسلمة فى غير «افعال المقاربة» لا يسلم بها مع افعال المقاربة ،لان السماع والقياس المؤسس على هذا السماع ان تكون اخبارها مضارعة ·

وارى ان لافرق بين «طفق» مع المضارع ، وبينها مع المصدر فى الآية السابقة ، فالمعنى واحدولعل استعمالها مع المضارع ومع المصدر يشبه ما عليه اللغة الانجليزية حين تستعمل الفعل المساعد مع الـ infinitive ومع الـ gerund الذى يقابل المصدر فى اللغة العربية ـ فقولك طفق يلعب تساوى he began to play وقولك طفق لعبا تساوى he began playing اما الكلمة الاخيرة « عسى » فقد وردت غير متصرفة ناقصة ، لم تتصل بها علامة تانيث او عدد ـ غالبا ـ ·

فافعال المقاربة مرت بالمراحل التالية ـ كما تبدو فى تراكيب القرآن الكريم ـ

اولا : افعال تامة متصرفة

ذات دلالة على الحدث والزمن
« خلق ـ انشا ـ شرع »

ثانيا : افعال تامة او ناقصة ماضية فقط
تدل على الحدث والزمن
« اقبل »

ثالثا : افعال ناقصة متصرفة

تفقد وحدها الدلالة على الزمن والحدث
« كاد »

رابعا : افعال ناقصة غير متصرفة
تفقد وحدها الدلالة على الزمن والحدث
مثل « طفق »

---

1) الذاريات ـ 29 ، (2) يوسف ـ 71 ، (3) الصافات ـ 27 ، 50 ، الطور ـ 25 ، (4) القلم 30 ، (5) البقرة ـ71 ، (6) النور ـ 35 ، (7) الزخرف 52 ، (8) الاعراف ـ 22 ، (9) ص ـ 33 ، (10) ثعلب ابو العباس احمد بن يحيى، مجالس ثعلب ق1 ج 2095، القاهرة ، دار المعارف ، 1948 ، ابن الانباري ، كمال الدين ابو البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله ، اسرار العربية ـ 53 ، ليدن 1886 ، همع الهوامع ج 1 ـ 131 ·

(10) ابن جنى ، ابو الفتح عثمان ، الخصائص ـ ج 1 ـ 97·98 ، القاهرة ، دار الكتب 1952 ·

خامسا : كلمات ناقصة غير متصرفة
لا تدل على حدث ولا زمن
« عسى »

لا تلحقها علامة (العدد والجنس غالبا)

واذا تتبعنا حالات الكلمات الناقصة الثلاث « كاد وطفق ، وعسى » — كما تتضح من هذا العرض — نرى انها كانت تسير فى طريق التطور نحو الاداة ، فكاد فعل متصرف ، وطفق فعل غير متصرف وعسى غير متصرف والفرق بين طفق وعسى هو ان طفق قد تلحق به علامة تثنية ، بخلاف « عسى » الذي يستعمل على صورة واحدة غالبا ، اي ان هذه الكلمات كانت تفقد خواص الفعل شيئا فشيئا .

ولكن تصرف (كاد) يجعل قرابتها للافعال — ولو من الجانب الشكلى — اقوى من قرابتها للادوات الجامدة ، و(طفق) اقرب الى «الحرفية» منها الى «الفعلية» لانها غير متصرفة .

اما سر اقتصار العرب على صيغة الماضى لهذه متصرفة لا تلحق بها اية علامة تشير الى عدد او نوع المرفوع بعدها ، ومن هنا فقد شبهوها بلعل التى هى اداة بلا خلاف . (1)

والضمائر التى قد تلحق « عسى » لا تبعدها فى نظر بعضهم عن حالة «الحرفية» اذ ان الضمائر اتصلت بها لشبهها بالفعل فى كونها على ثلاثة (2) .

اما سر اقتصار العرب على صيغة الماضى لهذه الكلمات فهو ان المتكلمين العرب قصدوا الى ان يصفوا الحدث قبيل حدوثه مباشرة ، والتعبير عن مقاربة حصوله الوشيكة حتى ليظن القارىء او المستمع ان الفعل قد حدث « فعلا » او التعبير عن الحدث الذي يحدث فى الحاضر ، لكنه كان قد بدا منذ لحظات . ولذا نجد هذه الافعال الماضية ترد دائما كى تقرر هذه الحال بالنسبة لافعال مضارعة .

وتصرف « كاد » بمجيء المضارع منها يمثل حالة هذه الكلمات فى مرحلة مبكرة للغة حين كان لكل فعل صيغ فعلية مختلفة ، فهى بهذا اقرب الى « الفعلية » — كما قلت سابقا — .

والكلمات الناقصة التى احتفظ بها القرآن الكريم من هذه الكلمات وهى « كاد » — طفق — عسى » لا دلالة لها على الزمن فى حد ذاتها ولكن دلالتها على الزمن تظهر حين توضع فى جملة ذات افعال مضارعة ، فهى دلالة تركيبية اذن ، لانها لا تظهر الا فى تركيب وهذا منحى آخر من مناحى اعتبار هذه الكلمات من الادوات.

ومن الناحية التركيبية ايضا نرى هذه الكلمات لا تكتفى بالاسم المرفوع بعدها شان بقية الافعال بل تحتاج الى الفعل المضارع كى يتضح معناها — وهو — الامر الذي جعل الاقدمين يجعلونها من الافعال الناقصة — وهذه السمة تقربها من الاداة وتبعدها عن «الفعلية».

وقد قسمت افعال هذا الباب الى ثلاثة اقسام من حيث اقتران خبرها المضارع بان وعدمه ، فهناك افعال يجب فيها اقتران خبرها بان ، واخرى يمتنع معها الاقتران ، وثالثة يجوز معها الاقتران : الاقتران وعدمه .

ويوازي هذا التقسيم الثلاثى تصنيف ثلاثى ايضا يتعلق بدلالة هذه الافعال فى جملتها .

فعلى الرغم من ان هذه الافعال سميت « افعال المقاربة » فانها كلها لا تعنى المقاربة ، بل ان بعضها يدل على المقاربة ، وبعضها يدل على الشروع ، وقسم ثالث منها يدل على التوقع .

وكان تسميتها افعال المقاربة تسمية للكل باسم البعض — كما يقولون —

والطريف ان القرآن الكريم احتفظ لكل قسم من الاقسام الدلالية الثلاثة السابقة بكلمة تمثله فاحتفظ بكاد التى تعبر عن مقاربة الحصول واستغنى عن كل اخواتها ، كما احتفظ بطفق التى تعبر عن الشروع فى الفعل الذى بدا منذ وقت قصير جدا ، وبعسى التى تعبر عن توقع حدوث الفعل .

واذا حاولنا تصنيف دلالات هذه الكلمات على الزمان حسب التصنيف الزمنى المعروف فنرى ان :

1 — طفق + الفعل المضارع تنتسبان الى الماضى
2 — كاد + الفعل المضارع تنتسبان الى الحاضر
3 — عسى + الفعل المضارع تنتسبان الى المستقبل

---

1) حاشية الامير على مغنى اللبيب ج 1 — 132، القاهرة ، المطبعة الازهرية 1928
2) منهج السالك — 71

وكان القرآن حين احتفظ بهذه الكلمات الثلاث لاداء الوظائف السابقة ، كان يحتفظ بما يدل على الاحتمالات الزمنية الثلاث ، وبعبارة اخرى يلاحظ ان هذه الكلمات تساعد الفعل المضارع على الاتصاف بالدلالة الزمنية المعينة فهى — اذن — كلمات مساعدة .

فالفعل المضارع « يلعب — يحتمل « الحاضر » و«المستقبل» بصفته ، وبتركيبه مع كاد : كاد يلعب يفيد الحضور وبتركيبه مع عسى : عسى يلعب يفيد الاستقبال ، وبتركيبه مع طفق : طفق يلعب يفيد الماضى .

وواضح من الشرح السابق ان لون الدلالة — ان صح اطلاق كلمة لون هنا — مع كاد وعسى عبارة عن « تخصيص » المضارع كى يعبر عن الزمن المعين حاضر او مستقبل ، اما لونها مع طفق فعبارة عن « تحويل » المضارع كى يعبر عن الزمن الماضى .

واذا كانت هذه الكلمات تساعد المضارع على التعبير عن الجهة الزمنية المعينة ، فانى اقترح ادراجها ضمن ادوات الجهة وهو المصطلح الذي يشمل كل الادوات التى تساعد الفعل على اعطاء الدلالة الزمنية المعينة ، فعسى مثلا تنهض باداء الوظيفة التى تقوم بها السين التى هى اداة بالاتفاق .

صحيح ان هذه الكلمات « كاد ، عسى ، طفق » تطلب مرفوعا يقع قبل المضارع حقيقة او حكما ، ولكن هذا لا يمنع من ان نتعبرها داخلة على المضارع على ان يفهم الدخول هنا بمعناه العام الذي يدل عليه السياق ، اي ان هذه الكلمات تاتى فى سياق الفعل المضارع .

وقد يبدو ان هناك تناقضا بين الاسم العام الذي يجمع هذه الكلمات وغيرها « ادوات الجهة» والاسم الخاص الذي اعطى لهذه الكلمات « افعال المقاربة ».

والدافع لى وراء ادراج هذه الكلمات ضمن « ادوات الجهة » ان هذه الكلمات — رغم كونها افعالا — تقوم بوظيفة الادوات ، وعلم اللغة التركيبى يعنى بدراسة الكلمات من حيث ما تؤديه من وظائف وقد يتناسى ما تدل عليه من معنى ، او قد يتجاهل خصائصها الشكلية .

وجمعا لطرفى الظاهرة الواحدة فى مصطلح واحد اقترح تسمية افعال المقاربة « الادوات الفعلية » .

فهى « فعلية » لان صفتها فعلية ، كما انها تبنى على الفتح ، ويلحق بها علامة التانيث كما ان بعضها متصرف .

وهى «ادوات» لان بعضها جامد يكاد يقرب من الحرف ، كما ان معناها لا يظهر الا فيما بعدها ، فقد سبق انها تساعد المضارع على اكتساب الدلالة الزمنية المعينة فلها — كما يقول سيبويه — ، نحو ليس لغيرها من الافعال» (1)

بعبارة اخرى ، هذه الكلمات تتسم بسمة الافعال «حرفا» لكنها تسلك سلوك الادوات «تركيبا» فهى ليست اداة خالصة لاخذها الشكل الفعلى ، وتتصرف بعضها ولكنها «اداة فعلية» .

وهكذا يرينا ما عليه هذه الكلمات فى القرآن الكريم ان تراكيب القرآن تمثل مرحلة تطورية فى حياة اللغة العربية ، فالعدد الجم من « افعال المقاربة » — كما سرده النحاة القدماء من تتبعهم كلام العرب — لم يرد منه فى القرآن الكريم الا سبعة افعال .

ويبدو ان المتكلمين العرب كانوا قد بداوا قبيل نزول القرآن ينصرفون عن هذه الطريقة اقصد تركيب افعال المقاربة — شيئا فشيئا — بدليل ان ثلاثة افعال من هذه السبعة استعملت فى القرآن استعمال الفعل فهى تامة متصرفة ذات دلالة زمنية ، والافعال الاخرى الباقية كانت تتجه الى ان تصبح «ادوات» فارتنا تناولات متفاوتة عن سمات الافعال — على ما سبق بيانه — .

وانوه هنا بمنطقية لغة القرآن الكريم واتساقها فى الاداء فقد سبق بيان احتفاظ القرآن الكريم بكلمة واحدة لكل قسم دلالى من اقسام هذه الكلمات الثلاثة، فحافظ بهذا على هذه الطريقة التركيبية وكتب لها الابدية فى لسان العربية .

---

(1) الكتاب ج 1 — 479 .

المراجع :

1 ــ القرآن الكريم

2 ــ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سيبويه)
الكتاب ــ القاهرة ، المطبعة الاميرية 1898

3 ــ ثعلب ، أبو العباس احمد بن يحيى
مجالس ثعلب ــ القاهــرة ، دار المعارف 1848

4 ــ ابن جنى ، أبو الفتح عثمان
الخصائص ، القاهرة ، دار الكتب 1952

5 ــ ابن الانبارى ، كمال الدين ابو البركات عبد الرحمن بن محمد
اسرار العربية • ليدن 1886

6 ــ أبو حيان ، محمد بن يوسف بن على
منهج السالك ، نيويورك 1947

7 ــ السيوطى، جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر
همع الهوامع ، القاهرة ، مطبعة السعادة 1909

8 ــ حاشية الامير على مغنى اللبيب ، القاهرة ، المطبعة الازهرية 1928

9 ــ يوسف السودا
الاحرفية ــ بيروت ، دار ريحان •